

بين الصحافة

والادب

الصحافة والأدب صنوان تربطهما مودة وثيقة العرى . والصحافة والأدب كذلك عدوان لدودان يتربص كل منهما للثيل من غريمه وينافسه .
قد يكون هذا عجيباً ، ولكنها الحقيقة الجليّة

فالصحافة مهنة تتطلب أول ما تتطلب السرعة واليسر ، والأدب يقتضي أول ما يقتضي أناة وتجويداً . الأدب مالة على الصحافة والعكس غير صحيح ، لأن الصحافة تستطيع أن تستغني عن الأدب إذا ضاق المجال وفاض سيل الأنباء والبرقيات . أما الأدب فلا يستطيع أن يستغني عن الصحافة لأنها بحكم سعة انتشارها وكثرة تداولها تعد أفضل وسيلة لنقل هذا الأدب إلى قارئيه . لذلك يحرم الأدب دائماً على مصادقة الصحافة ، ويقبل روادها على التردد إلى الصحفيين رغبة في عدم إيصاد الأبواب دونهم .

ومحار الأديب الذي يشغل بالصحافة ، أيجح إلى الأدب فيكون مقلداً في إنتاجه عجيداً أم ينحاز إلى الصحافة فيتوخى السهولة والسرعة ويُعنى بالتسرع في ذاته لا بطريقة صوغه وتجميله .

ولتغرب لذلك مثلاً : إذا ذهب صحفي وأديب لمقابلة كبير من الكبراء ومخادته ومخادته وحاد كل منهما يدون ملاحظاته ، فإن الصحفي قد يقتصر من كلام الكبير على جملة واحدة أو إثنين ويهمل بقية الحديث لأنه « إنشاء » لا أكثر ولا أقل . أما الأديب فإنه يبدأ بوصف هذا الكبير ، فيقول إنه أهيفُ القدر انحصر الشعر عن جبهة عريضة توهي بالتفكير المسبق ، يتحدث إليك حديثاً ذا لعمري موسيقية تحب إليك طلب المزيد من مجالته ، ثم يمضي يسرد كلامه كلمة بكلمة ، بعد استبعاد النابي والعامي وصوغه في قالب فصيح بليغ . ولا ينبغي أن يشير بين الآونة والأخرى إلى ابتسامه انفرجت عنها شفها

الكبير، أو رشفة من قذح ارتشفها، أو سيجارة أشعلها. ويختتم مقالته بوصف الطريقة التي حياها بها ذلكم الكبير.

هذه بورة لمت أحب أنها دقيقة، ولكنها تمثل المجاهدين متضادين، وأذلك يحرص الصحفي المحض على أن لا يتبحر للأدب الوصاف أن يتسلل إلى صحيفته خشية استغلال أمر الصحيفة المحدودة في كلام لا يقدم ولا يؤخر، وإن كان من المؤكد أن يفوت عليه نشر بعض الأنباء ذات الشأن.

وإذا صدر كتاب وأراد صحفي أن يكتب عنه كلمة في جريدته فهو بين أمرين: إما أن يكتب عنوان الكتاب واسم مؤلفه وناسره ومثله، وإما أن ينتقي منه فصلاً طريفاً أو حادثة معينة ينشرها كاملة أو مرجحة.

أما الأديب فإنه لا يفتح بهند «التشور» وإنما يقبل على تلاوة الكتاب بتدبر وعناية شديدتين، ثم يكتب عنه الصفحات في إطار المؤلف وتقرئ الكتاب فصلاً فصلاً إن لم يكن كلمة كلمة. ولكن بعض الصحف التي لا تود أن تخاصم الأديب خصاماً شديداً تتوخى التوسط بين المذاهب، فهي توفى الكتاب حقه من الناحية الاخبارية وتجود عليه بتقليل من الناحية الأدبية، وهي في هذا تمسك العصا من وسطها.

والصحافة لا تعترف بالمرض ولا بالمطر ولا بالبرد ولا بالليل ولا باليل ولا بالسيارات ولا بالسلطات ولا بالمواسم ولا بشيء. ولكن الأدب يعترف بها ويقيم لها وزناً.

ولغني بذلك أن الصحفي قد تصيبه الحمى ولكنه وهو يفترض سريره يباشر عمله فيتصل بهذه الدوائر وتلك ويقف على الأقدام ثم يلفها بالهاتفون إلى صحيفته متجدداً المرض وسلوكه، وإذا اكفهر الجوع وعسفت عاصفة رملية هوجاء كما حدث من محوامين، سارع الصحفي إلى الشوارع يسور لها موراً ويتأمنها ليستجل تحولاتها واتجاهها وألوانها، بينما يعتصم سواه بالبور، ويحول الجوع والطلع دون هذا التبع والرصد. وإذا نشبت معركة أو شُهرت حرب غار الصحفي إلى حيث تكون وأبلغ جريدته كل خطوة وبكى حادثة أما الأديب فلا يزال البعض يزعم - وأجبه على صواب - بأن الصحفي لا يتزل عليه إلا تحت ظروف خاصة، وإذا شيعان لشهر لا يتجلى لصاحبه إلا في أحوال معينة

فهذا لا يكتب أده إلا في الساعة الرابعة صباحاً ، وذلك لا ينظم قصائد إلا على ضوء شمع خابر ، وذلك لا تنفجر بنايعة إلا على شاطئ البحر ، وهكذا مما قد لا يتوفر للصحفي فالصحفي يعمل في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يؤدي عمله في الترام والنادي والسيما والشارع ، في الجور الصاخب والهدوء الشامل ، بين آلات الطباعة ذات الضجيج والمضجج ، وعلى المكتب الأنيق الفاخر في حجرته . يباشر عمله فلا يهيمه أن تطخت ملابسه بالزيت أم خضبت يده بالخبر . الصحفي يستقي الأنباء من الحقيق الدقيق ، ومن الرفيع السامي ، من الحارس ومن المحروس ، من سائق السيارة وصاحب المكتب ، من المصادفة والمثارة .

أما الأديب ، فلا أحبه على هذا يستطيع لأنه يقول إن هذا جهد ضائع ، فاقبحة الخبر إذا قرأته بعد نشره يوم واحد . إنه يصبح نيباً منسياً ، ما يكاد يولد حتى يموت . أما الأديب ، فإنه يخلد تنقائه الأجيال ويردده بنو كل عصر ويلتذ بتلاوته المحدثون .

هذا هو الخصاص وهذا هو التباين بين الفنانين المتصاهرين : الأديب والصحافة .

أما الصداقة التي تولف بينهما فتعورها الكلم والشداد والقلم والطرير

هذه صناعة كتابية ، وتلك صنعة كتابة

هذا عمل مشاع ، وذلك عمل مشاع .

الصحافة تشح صدرها أحياناً للأدب ، والأدب يرسم الطريق أمام الصحافة . حتى لقد استقل الأدب بصحافته نظاماً فأصدر رجاله مجلات نهريّة وأسيوية ونصف شهرية يدعونها نقشات أقلامهم وتناج قرائهم ومحبول بحونهم ، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم أدب الصحافة أو صحافة الأدب لأن الاخراج بين الفنانين يعمل إلى مرتبة عالية وإذا رجنا إلى تاريخ الصحافة العربية تبيناً أن أسبق الصحف إلى الظهور - ومنها عدد لا يزال على قيد الحياة كالوقائع المصرية والاهرام والمقطم - كانت تعني كل العناية بالأدب ، ولا تنشر الأنباء إلا كما تنشر الاعلانات ، فيجدها الوقائع المصرية مثلاً كانت تصدر طائفة بالمقالات الأدبية التي يكتبها محرروها وتنشرها في جانب ذلك ما تصدره الحكومة من قوانين ولوائح واعلانات وتعيينات وتوقيات وهلم جرا .

وجريدة الاهرام كانت عند ما أسسها المرحومان سليم وبشارة تولا تصدر أسبوعياً

في الإسكندرية باللغة العربية ، ثم نقلت الى القاهرة وأخذت تصدر طبعين واحدة باللغة العربية متضمنة المقالات الأدبية المطولة ، وثانية باللغة الفرنسية . وكانت تتعرض أحياناً لبحث شؤون البلاد الاجتماعية . وظلت تسير على هذا النهج ولم تصف بالصفة الاخبارية وتتطلب على كل ناحية أخرى فيها حتى آلت ملكيتها الى جبرائيل نقلا باشا وولي هو أمرها بنفسه .

أما جريدة المقتطف ، فكانت كذلك جريدة أدبية تنشر نشأت أقلام الأدباء السوريين والبنانيين في مصر . بل إن مؤسسها غلبت عليهم الصفة الأدبية لأن اثنين منها ألقا قبل المقتطف مجلة المقتطف في لبنان ثم نقلها الى القاهرة وهي مجلة أدبية وعلية كما يعرف قراؤها . وظل الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر باشا يشرفان عليها الى جانب اشرفهما على المقتطف حتى تروا أولهما وأفند تقدم السن ثانيهما . ولا يزال نمر باشا يرالي الأدب كل عناية ويسعى جهده الى صنع الصحافة بهذه الصفة ، كما أنه يبذل جهداً محموداً في جمع فؤاد الأول للغة العربية .

ومن يرجع الى أعداد « الجريدة » التي كانت تصدر في سنة ١٩١٢ والسوات التي تليها يقرأ مقالات أدبية رفيعة لمعال الدكتور لطفي السيد باشا يستطيع الأديب أن يدعي انها أدب ويستطيع الصحفي أن يقول : بل صحافة ، ويمكن للعلماء والباحثين أن يقولوا : بل هي علم وبحث .

والتعليق على الأنباء هو في الواقع لون من ألوان الأدب ، لأن المعقب الصحفي يبسط البناء ميئاً أسبابه ودواعيه في أسلوب كثيراً ما تكون السهولة الممتعة من صفاته . والمقالات الانتاحية والتوجيهية هي كذلك ضرب من ضروب الأدب لأن كاتبها يتوسل بالمنطق والحجة والأسلوب القوي على اقتناع الجمهور وأولي الأمر بمدالة انقضية التي يدافع عنها أو بصواب الرأي الذي يدعو إليه .

ولا ريب في أن الأديب إذا أحسن الوقوف على الحقائق المتعلقة بموضوع معين كان أقدر الناس على الاقتناع وأعمهم في كسب التأييد الذي يعوزه . ولهذا السبب عينه نبشت فكرة أخذت تنتشر في معظم بلاد العالم تقول إن الأدب يجب ألا يقتصر على ذاته

وإنه ينبغي أن يتصدّر الأدباء حركات الإصلاح الاجتماعي وتوجيه الرأي العام عن طريق الصحف إلى الهدف المبنيّ

والأدب يحكم دأبه ، له قرائه ومريدون يتابعون كل ما يكتب أيّنا كان ، ويحرمون على الأيديوتهم شيء مما ينتج ، لذلك يكون للمقالة الإصلاحية التي يكتبها الأديب أثر أبعد من المقالة التي تظهر في جريدة بغير إمعان .

والمقالات التي تنشرها المجلات الأسبوعية والمصوّرة هي كذلك نوع من الأدب لأنها تكتب بطريقة جذابة ذات مقدمات وأواسط ونهايات ، فضلاً عن مطابقتها أسلوبها لمبادئ النحو والصرف وخضوعه لجميع قواعده . ثم إن كتاب هذه المقالات كثيراً ما يترسلون في الخيال ويتركون له العنان فتصبح مقالاتهم قطعاً أدبية تقيسة .

أضف إلى ذلك أن الصحافة اليومية والدورية لم تتخلّ بعد عن الأدب على الرغم من القيود التي ألزمت على الإذعان لها بحكم شحّ الورق وخضوعه لنظام توزيع دولي . فانتشرت الصحف اليومية جميعاً تفتح للشعراء والأدباء المجال فتنتشر لهم ما تجود به أقطابهم ، ولا سيما في المناسبات الوطنية أو القومية . ويهتم بعض الصحف بتابعة المحاضرات التي تلقى في الجمعيات الأدبية والعلمية وفي نوادي العاصمة المصرية وقاعاتها وتنتشر موجزاً لها ليطلع عليها الذين حالت ظروفهم دون الاستماع إليها .

علاوة على أن بعض الصحف أفرد أهدافاً خاصة للأدباء والكتاب ، ولا يزال العدد الذي أصدرته الأهرام بمناسبة وفاة عميدها تقليباً باشاً متضمناً المرثيات التي دونتها صحبه وخلفاؤه ، ماثلاً في الذاكرة ، ولا يزال العدد الذي خصصته الصحيفة حينها لاستقبال مولد جامعة الأمّ العربية يعدّ تحفة عالية من الأدب الخالص . وتلك الأعداد وأمثالها ، تكون متنفساً للقارئ يروح بها عن الأسلوب الصحفي الذي كثيراً ما يعوزه جمال الصياغة وحسن التقديم ، وكثيراً ما يكون متصفاً بالجناف والتعسّف .

كما أن الصحافة اليومية كانت - قبل الحرب - تهتم بترجمة روائع الأدب الغربي

ونشرها تفاعلاً مساهمة منها في النهضة الفكرية. كما أنها لا تزال تفرّد جانباً من أهرها للكتابة عن المطبوعات الجديدة وحنلات التأبين والاحتفاء التي تكون عادةً كسور عكظ حافلة بروائع الكليم وبدائع النظم.

ولم تغفل الصحافة الأسبوعية بوجه خاص باب القصص الذي لا يمكن لأحد أن يدعي إنباهه إلى أسرة الصحافة، فالقصص — المنقول منه والمؤلف — أدب صرف يتقبل القراء في مصر عليه: اقتبالاً شديداً أغرى بعض الناشرين بإصدار مجلات خاصة للقصص،

تلك هي الروشائح الوثيقة التي تصل بين أسرتي الأدب والصحافة، وهي — على ما أعتقد — أوثق من أن تنال منها الأيام. وهل أدل على توطيد هذه العلاقة من أن عدداً كثيراً من الصحفيين ورؤساء التحرير ينتمون إلى أسرة الأدب قبل أن ينتموا إلى الأسرة الصحفية والتطور الحديث في الصحف المصرية يقتضي انتخاب محررين ممن توافرت لهم مميزات خاصة لعل أهمها جودة الكتابة وحسن السووغ لأن الزمن الذي كانت الجريدة لا تستطيع أن تستغني فيه عن مصحح تراجع ما يكتبه المحررون قد ولى إلى غير رجعة. وأقلع أصحاب الصحف إلا القليلين منهم عن سياسة الانتماء واستخدام الصحفي الذي تستطيع أن تدفع له مرتباً أقل من سواه.

ولا ريب في أن هذا التحول الجديد في صحافة مصر يزيد الأمل في التقرب بين الصحافة والأدب حتى لا تكاد استشف من بين ثنايا المستقبل أننا مرفوفون على عصر يقرأ فيه القاري النظر في الصحيفة فيحسب أنه يقرأ قطعة من الأدب الرفيع، للأفراط فيها في استخدام الحركات الكلامية ولا قصور فيها عن استكمال دعائم الاجادة اللغوية.

هذه آراء عنت لي بعد خبرة قصيرة الأمد في كل من ميداني الصحافة والأدب. ولو خيّر بينهما لعمري أن أصدر حكماً.

وربع فلمعنين